العرب
السبت 2019/10/12
السنة 42 العدد 11495

# أفهل أبقى الشيطان سرا؟

علي الصراف
كاتب عراقي

ما من شعب تعرض للغدر مثل الأكراد. تاريخه كله يكاد يكون الغدر هو عنوانه الوحيد، من المصير الكارثي الذي انتهت إليه جمهورية مهاباد، إلى ما يواجهه الأكراد في سوريا الآن.

ولكن العيب لا يقف عند حدود الأدوار الخارجية، أو تضاربات المصالح المحيطة بهم، أو طبيعة الكيانات التي انقسم هذا الشعب ليكون مُجزّءا فيها ويعجز عن نيل أدنى حقوقه المشروعة.

العيب الأهم هو سوء الخيارات، وسوء التدابير.

قبل أن يذهبوا إلى طرح موضوع الاستفتاء على الاستقلال في كردستان العراق، أُنْظر على من كانوا يراهنون. لقد راهنوا على الولايات المتحدة، كما راهنوا على إسرائيل، بل وتعدى الرهان إلى نوع من تبني رديء للخطاب الصهيوني نفسه. حتى لم يعد غريبا، مع تفشي هذا الخطاب الأرعن، أن يرى المرء أعلام إسرائيل ترفرف مع أعلام كردستان.

لقد ظنوا أنهم، بالتحالف مع إسرائيل، يمكنهم أن يحظوا بدعم يكفي للبقاء، وقالوا "طز" بكل مشاعر جيرانهم العرب، بل وأكثر منها لكل المسلمين أيضا.

ارتدّ ذلك كله عليهم في نهاية المطاف. هذا من دون أن يفعل العرب ولا المسلمون (بصفتهم هذه) أي شيء، ولا حتى بالقول: "يا للعار". إذ خسأ الذين أخذوا بهذا الخيار أنفسهم بأنفسهم.

**بماذا أخطأ الأكراد هنا وهناك؟ لقد تحالفوا مع الشيطان لخدمة الشيطان. فلمّا حقق ما يريد لنفسه ركلهم. وتلك عاقبة من يخطئ في الحساب. معركة الحرية كان يجب أن تخاض مع قوى الحرية والتغيير، لا مع أي احتلال**

ليس مُهمّا، كيف أخطأوا قراءة الواقع. كما لم يعد مهما أنهم لم يفهموا طبيعة الدول المحيطة بهم نفسها ولا ارتباطاتها أو تحالفاتها أو مخاوفها، أو حتى طبيعة النظام الدولي نفسه، الذي إذا لم تتغير مكوناته، فإن من خلل المنطق التفكير بتغيير خرائطه.

لقد أخطأوا في ما هو أهم من ذلك بكثير. وكرروا الخطأ مرتين، وكأنهم يتعمدون القول إن من لا يؤمن يلدغ من جحر مرتين. ولقد لدغوا، لدغة أسوأ من أخرى.

معركة الاستقلال، كليا كان أو جزئيا، هي معركة حرية أولا. والحرية لا تتحقق بالشراكة مع الظالم.

لقد تشارك الأكراد مع نوعين من الظالمين: الاحتلال الأميركي، والمشروع الصفوي. وحسبوا أن التواطؤ مع القوي، يكفي لنيل المراد، ولو كان ذلك على حساب الشعب العراقي كله.

الخلل في هذا الحساب جليّ. فحتى لو تحقق المراد، فإن المظلوم لا يبقى أبد الدهر مظلوما. والمعادلات التي تتأسس على باطل، لا بد لها في النهاية أن تنهار.

هذا ليس كلاما نظريا. ولا هو كلاما عاما. إنه وقائع تثبت، كما يرى المرء الآن، أن المعركة قائمة، وأن المظلومين والمضطهدين من أبناء هذا البلد ينتفضون، وسيظلون ينتفضون حتى يستقيم الحق ويزهق الباطل.

السبب الظاهر الآن، هو الفساد. والفساد جزء من طبيعة النظام الذي أقامه الظالمون. وهو سينهار على رؤوسهم ذات يوم. تلك هي طبيعة الأمور. فالفساد لا يبني دولة، ولا يقيم نظاما قابلا للحياة. ولا يجدر الرهان عليه، فما بالك الشراكة معه؟

ولقد تلقى الرئيس مسعود بارزاني وعودا من البيت الأبيض. واستقبل هناك استقبال الزعماء. ولكن الحقائق الأخرى هي التي غلبت. فانهار حلم الاستفتاء على الاستقلال كما ينهار قصر الرمال. بل وخسر الأكراد "قُدسهم" أيضا. (لاحظ اللغة)، إذ يقصدون كركوك. وما كركوك بموطئ قدم رسول، ولا هي أرض رسالات، وإنما بئر نفط. حتى ليكاد الخزي ينبع من ذلك الوصف الرخيص.

وما من أحد قاتل الإرهاب، مثلما قاتل الأكراد. وما من بسالة كانت إلا بسالة شبانهم وشاباتهم من كوباني حتى الرقة.

لقد كان ذلك قتالا أصيلا، لشعب لا يريد أن يُستعبد مرتين. ولكن تم توظيف تلك البسالة، والنصر نفسه ضد دولة داعش، لحساب التحالف مع الولايات المتحدة في سوريا، حتى ولو من دون المطالبة بأي استقلال.

فغدر الرئيس دونالد ترامب بهم. فعل ذلك لأنه محكوم بمتطلبات الدفاع عن عضو في الحلف الأطلسي. بل ومحكوم بالأخذ بمعاييره الأمنية أيضا. فترك الفراغ ليملأه رجب طيب أردوغان.

بماذا، إذن، أخطأ الأكراد هنا وهناك؟

لقد تحالفوا مع الشيطان، لخدمة الشيطان. فلمّا حقق ما يريد لنفسه، ركلهم. وتلك عاقبة من يخطئ في الحساب.

معركة الحرية، كان يجب أن تخاض مع قوى الحرية والتغيير، لا مع أي احتلال.

هذه القوى، هي وحدها التي يمكنها، عندما يتم بناء دولة على مقومات العدل والإخاء والمساواة وقيم القانون، أن تمنح الأكراد حقوقهم.

الشعب الحر، لا يضطهد شعبا آخر، بل يحترم حقوقه ومطالبه. بينما لا يمكن لشعب أن ينال حريته وهو يمعن في ظلم شعب جار. معادلة كهذه لا يمكنها أن تستقيم حتى وإن بدت مغرية. ولقد كانت، على أي حال، من إغراءات الشيطان الذي انتهى إلى ركلهم مرتين.

معركة الحرية، الخاصة بالشعب الكردي، كان يجب، بعبارة أخرى، أن تخاض مع الشعب العراقي، مع قوى الحرية والتغيير فيه، ضد الاحتلالَيْن الأميركي والإيراني للعراق، لا معهما. ولو كان لا بد من الصمت حيال الغزو عام 2003، خوفا وخشية، فما كان من اللازم التحالف مع المشروع الصفوي، ولا الشراكة مع أركانه.

أعرف أن أكراد العراق لم يتعلموا هذا الدرس بعد. وما يزال الشيطان يغويهم بما أبقى لهم. ولكن ماذا عمن يجدون أنفسهم الآن يُستعبدون مرتين، من أكراد سوريا؟

أفهل لهم طريق آخر غير التخلص من سلطتي الاستبداد والاحتلال؟ أفهل يمكن المضي بهذا الطريق بتجاهل قوى الحرية والتغيير التي تواجه المشروعين الإخواني التركي والصفوي الإيراني، وهما وجهان لعملة واحدة؟ بل قل: أفهل أبقى الشيطان سرا يُخفي به حقيقته، لكي نَلدغ من الجحر نفسه ثلاث مرات؟

# من يؤيد العدوان التركي

بهاء العوام
صحافي سوري

لسبب ما أجهله شخصيا ويشاركني في ذلك كثيرون، تذكر العالم فجأة الاحتلال التركي لسوريا، أو بتعبير آخر تحول الوجود التركي المستمر منذ سنوات في سوريا إلى احتلال يستوجب الإدانة والشجب والاستنكار. ربما يكمن السر في الجغرافيا، فالجيش التركي غرب نهر الفرات ضمانة لوقف القتال والسلام، وفي شرق الفرات يصبح عدوانا واحتلالاً وتعدياً على حقوق الإنسان والسيادة السورية.

لعل المستضيف على ضفتي الفرات هو من يحدد ماهية الحضور التركي بين صديق وعدو. غرب الفرات هناك فصائل المعارضة وجبهة النصرة اللتان تأتمران بأمر الأتراك وتخوضان إلى جانب الجيش التركي جميع معاركه. وعلى الضفة المقابلة تسيطر القوات الكردية التي تعتبر دولة رجب طيب أردوغان عدوتها، وتشكل الذراع العسكرية للولايات المتحدة في الحرب على الإرهاب شرق سوريا.

وفق هذا المعيار يمكن، ببساطة، الجزم بتأييد فصائل المعارضة وجبهة النصرة وجميع القوى السياسية التي تعيش في كنف أردوغان، لعملية نبع السلام التركية. هؤلاء جميعاً لا يكرهون وحدات حماية الشعب الكردية كرمى لعيون أنقرة فقط، وإنما لأنها استغلت الأزمة السورية من أجل أن تعيد صياغة الواقع الديمغرافي والسياسي في مناطق الشمال، وتحول شرق الفرات إلى روجافا (غرب كردستان).

في معيار الولاء لتركيا أيضا يُفهمُ التأييد القطري العلني لعملية نبع السلام، خاصة وأن الدوحة لا تزال، حتى هذه اللحظة، تدعم فصائل المعارضة وجبهة النصرة اللتين تكنان العداء للقوات الكردية. كذلك يمكن فهم التأييد غير العلني من قِبل روسيا وإيران للعدوان، مع مراعاة اختلاف أسباب رفض الدولتين لسيطرة القوات الكردية على مدن ومناطق الجزيرة السورية تحت الحماية الأميركية.

ترفض إيران قيام كيان كردي مستقل في سوريا على غرار العراق. حالها في هذا حال الأتراك والحكومة السورية والكثير من الدول العربية والغربية. بالإضافة إلى أن طهران تكره وجود ذراع عسكرية أميركية في دولة تريد الهيمنة عليها من الجهات الأربعة. أما بالنسبة إلى الروس فهم يريدون تفتيت الحلم الكردي بدولة مستقلة أيضا ويرغبون في رؤية الأكراد نادمين على عدم إبرامهم اتفاق مصالحة مع دمشق، يعودون من خلاله إلى "حضن الدولة السورية الدافئ".

ثمة مصلحة أخرى للروس والإيرانيين في تأييد العملية التركية، وهي تتمثل باسترضاء الضامن الثالث لمفاوضات أستانة. الشريك الذي لطالما تكرم على طهران وموسكو بانتصارات ميدانية جعلت دمشق تستعيد السيطرة على خمسة وستين بالمئة من مساحة البلاد، بعدما كانت المعارضة تقف على أبواب القصر الجمهوري.

رفض أكراد الشمال المصالحة مع الحكومة السورية إلا تحت شرط الاعتراف بإدارتهم الذاتية، جعل دمشق تفرح للتوغل التركي رغم كل هذا التنديد الذي تنضح به شاشات وصفحات الإعلام الموالي للحكومة. تخلت دمشق عن حرصها ودبلوماسية مفرداتها تجاه الأكراد منذ أن بدأ العدوان التركي، وباتت تصفهم بالخونة والانفصاليين وترفض ليس فقط محاورتهم، وإنما وجود موطئ قدم لهم في البلاد.

في مواقف التأييد المبطن للعدوان التركي لا بد من الوقوف أيضاً عند غضب الأوروبيين إزاء العملية التركية. ملأ الأوروبيون الدنيا صراخا خوفا من أن ينفجر نبع السلام تحت السجون التي تجمع دواعشهم فيعودون إليهم أو يعودون إلى بناء دولتهم المزعومة مرة أخرى، وعندما خُيّرُوا بين الخوف من الدواعش والخوف من اللاجئين، صمتوا وباتوا يطالبون أنقرة بإنهاء عدوانها على الشمال السوري بأسرع وقت ممكن.

أعقد المواقف من العدوان التركي على سوريا هو موقف الولايات المتحدة. بقي هذا الموقف يحتمل التأويل والتحليل بناء على تناقض تصريحات المؤسسات الأميركية بين حيادية ورافضة لهذا العدوان، حتى رفضت واشنطن وموسكو إدانة هذا العدوان في مجلس الأمن. ظل الجميع قبل انعقاد الجلسة يكابر في قبول حقيقة أن الأميركيين باعوا الأكراد للأتراك. ليس خيانة وإنما انتهاءً لمصلحة استمرت لنحو أربع سنوات، استفاد منها الطرفان بالحدود القصوى، وعندما توجب على الرئيس دونالد ترامب الاختيار بين الأتراك والأكراد، اختار أنقرة لمصلحة أيضا وليس حبا برجب طيب أردوغان.

يعلم الأميركيون أن وحدات حماية الشعب الكردية تدعم حزب العمال الكردستاني. عاشوا بين أكراد الجزيرة وشاهدوا بأم أعينهم صور عبدالله أوجلان تُرفع فوق كل منطقة تحرر من داعش. عرفوا مكاتب تدريب الشبان والشابات الأكراد للالتحاق بمواقع الحزب العسكرية في جبال قنديل، وتلمسوا وصول أسلحة ودعم مادي من القامشلي لذلك الحزب المصنف على قوائم الإرهاب التركية. لم يعاقب الأميركيون الأكراد بانسحابهم من تل أبيض ورأس العين. ولكنهم، كما قال الرئيس دونالد ترامب، انسحبوا من حرب بدأت بين الأكراد والأتراك قبل مجيئهم وستستمر بعد رحيلهم.

ثمة من الأكراد السوريين أنفسهم من يقف ضد الحرب بين حزب الاتحاد الديمقراطي والدولة التركية، لذلك صنفوا من قبل الأسايش ووحدات حماية الشعب الكردية بالخونة ومنعوا من زيارة منازلهم ومناطقهم. لا يؤيد هؤلاء الحرب التركية على أبناء جلدتهم في القومية والوطن، وخاصة أن ضحاياها سيكونون من جيرانهم وأصدقائهم وعائلاتهم المدنيين، ولكنهم ضاقوا ذرعا باحتكار القضية الكردية من قبل حزب الاتحاد الديمقراطي وأذرعه العسكرية والأمنية.

**جرد قوائم الرافضين والمؤيدين للعدوان التركي يجب أن ينتهي بفئة مستضعفة من السوريين لا حول لها ولا قوة، تخشى أن يتحول هذا العدوان إلى حرب أهلية عربية كردية لن تفيد بشيء إلا في إطالة أمد الأزمة**

في الرافضين للعدوان التركي طبعا لا بد من ذكر الجامعة العربية، فقد حصل شيء ما دفع بجرعة زائدة من العروبة في عروق المنظمة الميتة، فراحت تبكي دولة شقيقة تعرضت لعدوان سافر. تكاثرت بيانات الإدانة من الدول الأعضاء دون أن يتنبه أحد إلى أن الدولة المفجوعة في سيادتها، مجردة من عضوية الجامعة ولا يزال مقعدها فارغاً منذ أن حُكم على نظامها بقتل شعبه وسحبت منه الشرعية العربية.

لن يُصلح موقف الجامعة ما أفسده الدهر، ولن يعيد للنظام السوري شرعية خسرها من قبل شعبه. كما أنه لن يخيف تركيا ولن يجبرها على إعادة حساباتها في العدوان على سوريا حتى ولو عاد بشار الأسد ليجلس على مقعد دولته في الجامعة.

في تعداد الرافضين للعدوان التركي على سوريا أيضا لا بد من ذكر إسرائيل. حمامة السلام التي أعادت للسوريين الجولان المحتل، وتسهر ليل نهار على حماية الأجواء السورية من أي اختراقات لمقاتلات أجنبية. تتعاطف إسرائيل كثيراً مع حلم الدولة المؤجل عند الأكراد، ولا تدخر جهدا لحثهم على تحقيق هذا الحلم والتمسك به مهما طال الزمن.

جرد قوائم الرافضين والمؤيدين للعدوان التركي يجب أن ينتهي بفئة مستضعفة من السوريين لا حول لها ولا قوة، تخشى أن يتحول هذا العدوان إلى حرب أهلية عربية كردية لن تفيد بشيء إلا في إطالة أمد الأزمة التي أتت على البشر والحجر في البلاد. لا تقبل هذه الفئة أية مبررات للعدوان التركي مهما كانت محقة من وجهة نظر البعض، وهي تتمسك بقناعة مفادها أن الأزمة قادت الجميع إلى خيارات خاطئة في بعض المواقف، ولكن محاكمة أي فئة على هذا الخيار أو ذاك، لن تعيد الدولة السورية إلى الحياة وإنما ستعجل بموت وحدتها إلى الأبد.